# جيش الخلاص

لحضرة صاحب السعادة توفيق دوس باشا

---

"جيش الخلاص" هيئة دينية مسيحية نشأت فى انجلترا عام ١٨٦٥ ، ولكنها ما زالت تنمو إلى أن انتشرت فى أقطار العالم كله تقريبا ، فلا يكاد يخلو منها قطر فى القارات الخمس. ولم يؤسس هذا الجيش كنيسة ولم يدع إلى عقيدة معينة فى الدين يستطيع أن يتميز بها من سائر الجماعات المسيحية . ولكنه امتاز بشىء واحد هو إعلان الحرب على الرذيلة . وهى حرب بكل معانى هذه الكلمة لا ينقصها غير السلاح المادى . ولكن السلاح الروحى أقوى أحيانا من السلاح المادى . وهذا السلاح لم ينقصه يوما من الأيام .

ونحن نكتب هذا المقال لكى ننبه الأذهان فى مصر إلى المعنى والمغزى من الدين ، كما فهمهما قسيس انجليزى هو وليم بوث . فان هذا الرجل الذى ولد عام ١٨٢٠ وتوفى عام ١٩١٢ كان يستطيع أن يعيش مثل سائر القسيسين فى إحدى الكنائس يؤدى الخدمة الدينية أيام الآحاد والأعياد ، وكان فى وسعه أن يجد العيش الرغيد والحياة الوادعة والأمن والطمأنينة ولكنه لم يفعل ذلك ، بل آثر حياة الجهاد لمكافحة الرذيلة . فقد هالته كثرة الجرائم فى الأحياء الفقيرة فى لندن وتفشى الرذائل بين الفقراء ، والانغماس فى الخمور وما تجلبه من أذى الصحة والأخلاق . فقصد عام ١٨٦٥ إلى هذه الأحياء وهناك أعلن الحرب على جميع المفاسد. وكانت هذه الحرب خالية من العنف والبطش . ولكنها كانت مع ذلك حربا لأن "القسيس" وليم بوث نزل عن لقبه الكهنوتى وسمى نفسه " جنرالا " ثم نظم جمعيته على غرار الجيوش فصارت هى أيضا "جيشا" له ضباط بالرتب المختلفة فى الجيش ، بل صار لكل ضابط وكل جندى شكته الرسمية وأوسمته وألقابه . وهذا الجيش مؤلف من الرجال والنساء الذين يقصدون إلى المنزل والشارع والحانة والمتجر والمصنع ، ثم يقنعون كل فرد بأنه يجب أن "يخلص" نفسه بالاقلاع عن الرذيلة . فلا خمر ولا تدخين ولا أى نوع من أنواع الغواية الأخرى . وكانوا يدعون الناس ويخرجون بهم إلى حيث يجتمعون خارج المدن ، وهناك يخطبهم الجنرال أو أحد ضباطه ويزين لهم حياة الصلاح والبر ويأخذ عليهم المواثيق للاقلاع عن المفاسد التى تعلموها . ولكل فرقة من الجيش جوقتها الموسيقية التى تغرى بألحانها وبراعة موقعيها جمهورا

كبيرا من الناس بحضور الاجتماعات حتى ولو لم تكن لهم رغبة فى الاستماع إلى الخطباء. ولقد بلغ من نشاط "جيش الخلاص" أن صار عدد اجتماعاته الأسبوعية يزيد على أربعين ألفا . وكانت له عام ١٩٢٠ فروع فى ٧٣ مملكة ، وله مجلات ومؤلفات تكتب بخمسين لغة .

وكما أن الجيش فى الحرب تتألف منه الفرق المختلفة ويختص كل منها بحرب معينة، وأسلحة خاصة ، كذلك فعل الجنرال بوث هو وسائر قواده وضباطه فانه نظم جيشه فرقا . فجنود هذه الفرقة مثلا قد تخصصوا فى مكافحة الخمور، وآخرون قد اختصوا بخدمة المسجونين الذين يفرج عنهم ، وآخرون يزورون العائلات لتقديم النصائح والارشادات ، وآخرون ينقذون النساء والأطفال من مهاوى الرذيلة ، بل هناك فرق تألفت لمكافحة التعطل قبل أن تفكر الحكومة البريطانية فى إعانات التعطل . ونحن نشرح فيما يلى هذا النشاط الذى يجب أن نذكر أن الباعث عليه هو الدين . فانّ مؤسس هذا الجيش وقائده كان قسيسا أدرك أن الدين لا يقتصر على إنشاء الكنائس وإقامة الصلاة فيها، بل إنه يجب أن يكون كفاحا عمليا للرذيلة والجريمة والفقر والحاجة . وكثيرا ما أتيح لبعض المصريين أن يروا فى لندن هذا القائد المديد القامة الذى بلغ التسعين من عمره، وقد أسبل لحيته البيضاء بعد إذ حنته السنون وهو يخطب فى بحة خفيفة، ولكن فى جلاء واضح . وكان المجتمعون لا يقلون عن خمسة آلاف نفس من الجمهور قد تفرق بينهم الضباط والجنود من "جيش الخلاص". وتكلم القائد عندئذ عن أشياء كثيرة ، وكان يستشهد بآيات عدة من الإنجيل والتوراة ، ويحض على العمل لإنقاذ البائسين واليتامى والمتعطلين والأمهات الفقيرات والمجرمين، ويذكر ما رآه من أمثلة البؤس فى هذا الحى أو ذلك القطر . ومع أن هذا الرجل قد توفى عام ١٩١٢ فان جيشه لم يضعف بعد وفاته بل نما وقوى ولا يزال إلى الآن سائرا فى النمو والقوة .

كان أول ما بدأ به هذا الجيش إغراء الناس بالحياة الصالحة، فكان جنوده يقفون بالقرب من الحانات ، فاذا وجدوا أحدا يقصد إليها أو يخرج منها حاولوه بالحديث وعرضوا عليه المطبوعات التى تبين له خطأ الأسلوب الذى يتبع فى حياته، ثم يدعونه إلى مجتمعاتهم ويزينون له التجند فى الجيش . وهو إذا قبل أن يكون جنديا فإنه يتعهد باجتناب الخمر والدخان والتزام القواعد الصارمة فى الأخلاق مثل الاستقامة والنزاهة ومعاملة الناس بالحب والمراعاة إلى غير ذلك .

والتفت الجنرال بوث إلى المجرمين . فان المجرم الذى يقضى عقوبة الحبس أو السجن يخرج وهو شريد طريد لا يعرف كيف يعيش ولا أين يقيم . فخص القائد فرقا عديدة من جيشه يقصد جنودها كل يوم إلى أبواب السجون ويقابلون أولئك الذين أفرج عنهم ،

فيستلمونهم بالرعاية والعطف، ويقدمون لهم المأوى والطعام بل يقدمون ما هو خير من المأوى والطعام فى مثل هذه الظروف ، وهو الصديق الناصح الذى يعالج أخلاق هذا الشخص الذى لعله يواجه العالم بعد ثلاث أو أربع سنوات قضاها فى السجن قد ملأت قلبه حقدا عليه ورغبة فى الانتقام منه. وهذا الصديق يعالجه بالدين ويعظه و يبحث له عن العمل الذى يستطيع أن يعيش منه . ثم بعد ذلك يتعهده بالزيارة اليومية أو الأسبوعية لكى يقيه من شرور الغواية ، بل هو حين يجد أن هذه الغواية توشك أن تتسلط عليه يسارع إلى الاستعانة بغيره من الجنود أو الضباط لانقاذه أو — كما يقولون — خلاصه . وأسس الجيش لهذا الغرض ما يسمى "بيوت باب السجن" أى البيوت التى يلجأ اليها من تركوا خلفهم باب السجن . وفى هذه البيوت طعام ومأوى وتجديد للأخلاق . وقد بلغ عددها عام ١٩٢٠ خمسة عشر بيتا دخلها ٢٥٠٠ مجرم سابق . وشعرت المحاكم الانجليزية بالبر السامى الذى يمارسه هذا الجيش فصار كل من تحكم عليه من المجرمين مع وقف التنفيذ يرسل إلى هذا الجيش لمعالجته و إرشاده .

وفى الأحياء الفقيرة تتفشى الرذيلة بين النساء، حتى أن الصبيان أنفسهم يقعون فيها، فجعل الجيش إنقاذ النساء والصبيان من مهامه الأولى . ولم يكن يقتصر هنا على النصيحة . لأن النصيحة عند المرأة الساقطة أو الصبى الشريد لا تلقى غير السخرية . ولكنه عمد إلى العمل فأسس البيوت المختلفة لإيواء هؤلاء الضالين . وقد بلغ ما يديره هذا الجيش عام ١٩٢١ من "البيوت الصناعية للنساء" ١١٦ بيتا تجد فيها المرأة العمل الشريف الذى تكسب منه عيشها دون أن تحتاج إلى ممارسة الرذيلة ، وكان له فى ذلك العام أيضا ٩٦ بيتا للطفولة المشردة يجد فيها الصبيان والأطفال الطعام والمأوى والتعليم .

ولكن الجنرال بوث كان فى كفاحه للرذيلة يرى عدوا قد تمكن من الحصن ورسخ فيه وهو الفقر . فكانت حربه على الفقر حربا شعواء . ولذلك أسس ٣٩ بيتا للأمومة تجد فيها الأم الخدمة التى تحتاج إليها قبيل الوضع و بعده . كما أسس ٢٨٢ ملجأ ومأوى للعجزة والمحتاجين . بل هو لكى يكافح التعطل أسس ١٧٣ مصنعا يعمل فيها المتعطلون كل فى العمل الذى وفق له ، كما أن هذا الجيش العجيب اشترى ٢٢ عزبة كان يرسل إليها بعض المتعطلين الذين يلجأون إليه ولا يحسنون صناعات المدن .

وكان من هذه الحرب التى أعلنها الجنرال بوث على الفقر أنه اشترك عام ١٨٩٠ مع المستر ستيد صاحب مجلة المجلات الانجليزية فى استقراء أحوال الفقر فى انجلترا ووصفها ، وأخرج الاثنان فى ذلك العام كتابا باسم "انجلترا المظلمة" شرحا فيه ألوان الحرمان التى يعانيها الفقير وأساليب العيش بين الطبقات المغمورة . وارتجت انجلترا لهذا الكتاب كما لو كانت قد أصابها زلزال . ولم تمض ثلاثة أشهر حتى جمع الجيش من المتبرعين أكثر من مائة ألف جنيه .

وللجيش أسلوب فى جمع التبرعات هو دعوته من وقت لآخر الى أسبوع إنكار الذات . أى أن المتبرع ينزل عن بعض ألوان الطعام أو الملاهى التى يحب ويتبرع بقيمتها للجيش . وقد جمع بهذه الطريقة إلى عام ١٩٢١ مبلغ ١٦٧,٨٤٢ جنيها .

ولكن الجيش يقوم بنوع من النشاط لا يكلفه مالا ولكنه قد يكلفه عناء أكثر من جمع التبرعات وإنفاقها على الفقراء والمعوزين ذلك أنه يوفد جنوده وضباطه لزيارة البيوت وإصلاح ما بين الزوجين وإغراء أعضاء العائلة بالحياة الصالحة التقية ومجانبة الخمر والتدخين . وقد قام الجيش إلى عام ١٩٢١ من الزيارات للبيوت لهذه المناسبة بـ ٢٢٥,٢٥٣ زيارة .

* * *

هكذا عرف رجل الدين بوث كيف يخدم الدين ويطبق تعاليمه وينفع بها الناس .

فكيف نعمل نحن فى بلادنا لخدمة الدين وكيف نستفيد من الدين فى خدمة المجتمع المصرى ؟

لا يزال أكثرنا يفهم أن كل ما ينبغى أن يعمل فى هذا الباب تشييد زوايا ومساجد وكنائس تتلى فيها الأدعية وتقام الصلوات ، ولسنا فقراء والحمد لله فى عدد المساجد والكنائس ، ولا فى أماكن العبادة ، وإنما نحن فقراء ، فيما تقضى به الأديان عامة من التواصى بالحق وبالمرحمة ، ومن مجانبة الخمر والميسر والزنا وشهادة الزور ، ونحن بوفرة عدد رجال الدين بيننا ، أقدر على تجريد "جيش للخلاص" من أوربا التى لا يتشح فيها بوشاح الزعامة الدينية غير رجال الكنيسة .

لدينا الآلاف العديدة من علماء الأزهر وطلابه ، ومن رجال الكنائس على اختلاف مذاهبها ، ومن رجال التعليم الإلزامى ، ومن أئمة المساجد وخطبائها ، ومن الوعاظ الرسميين ، ومن مأذونى الشرع الشريف ، ومن رجال الطرق الصوفية المختلفة .

ولدينا عدد عظيم من الجمعيات الخيرية كجمعيات الشبان المسلمين ، والشبان المسيحيين ، والإخوان المسلمين ، ونشر الفضائل والآداب الإسلامية ، والتعاون على البر الإسلامى ، ومكارم الأخلاق الإسلامية وغيرها مما يزيد عدده على المئات ويزيد أعضاؤه على مئات الألوف ، وكلها تعمل باسم الدين وتدعو إلى أغراض دينية .

ولقد كان الذين اجتمعوا حول "بوث" أول الأمر رجالا قليلين ، فما زال يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى استكثر من الأعوان ، وجمع الأموال ، وبنى المنشآت ، ونظم الكتائب ، وآوى الشريد ، وهذب المجرم ، ورد إلى الفضيلة جمهرة هائلة ممن شذوا عليها أو كادوا يشذون .

أفلا نستطيع نحن بعددنا العديد وقوانا المختلفة أن نؤسس هيئة " بجيش الخلاص " على ذلك المثال البديع !

إن اتجاهنا الى الخير صادق لا شك فيه ، وأولئك الدعاة الدينيون منا ، وهذه الجمعيات الخيرية القائمة بيننا ، تقوم بكثير من أعمال البر ، وتخدم كثيرا من أغراض الدنيا والدين ، ولكن جهودها متوزعة غير متعاونة ، ومبراتها فردية غير جماعية ولا شاملة ، وما دام الأمر كذلك فلا خلاص مما نحن فيه ، وستظل الدعوة الى الدين وفضائله ضربا من التقليد لا ينتج الثمرة المرجوة ، وستظل لا ننتظر من علماء الدين ومدرسي المدارس والوعاظ والأئمة والخطباء عملا اجتماعيا ، أكثر من القاء الدروس والمواعظ الرسمية فى ساعاتها المعينة ، ولا نعرف لرجال الطرق الصوفية عنوانا غير ترديد التسبيحة المحفوظة للعهود وحمل البيارق والسير فى المواكب ، ولا للجمعيات الخيرية أثرا سوى إقامة بعض الحفلات وجمع شيء من المال ، وبذل مقدار قليل من الصدقات ، وإصدار مجموعات من أوراق النصيب .

لسنا نرضى لهذه الطوائف المنتسبة إلى الدين ، والقادرة على خدمته وتطبيق تعاليمه وإصلاح المجتمع بواسطتها أن تظل هكذا قوى مبعثرة ، بل نريدها جيشا ملتئما منظما حسن القيادة دائبا فى العمل ، كما يدأب جنود "بوث" وأعوانه . نريدها جيشا يكافح الرذيلة حيث وجدت ، ويحمى الفقراء على الخصوص من أضرار الخمر والميسر والتدخين ، ثم من الفقر نفسه بتسهيل العمل للعاطل ، وصرف المجرم عن الاجرام الى مرتزق شريف ، ويعمل على حماية اليتامى والأرامل والعجزة والبائسين ، ويرشد الآباء والأمهات الى أصول التربية النافعة بايفاد مرسليه ومرسلاته إلى الأحياء والبيوت من أجل هذا الإرشاد ، وينقذ الساقطات من غوايتهن بمثل ماصنعه " بوث " من إقامة " البيوت الصناعية للنساء " ، ويتوسل الى ذلك بما توسل به ذلك المصلح الديني من مختلف الأسلحة ، وقد شرحنا ذا بما فيه الكفاية .

وليس "جيش الخلاص" بعد نجاح تجربة "بوث" بمشروع محتاج إلى مزيد من الفحص أو جديد من التجربة ، بل هو نظام قائم ، وسلطة نافذة ، وقوة عاملة .

وأذكر أن قد ارتفعت فى مصر أصوات تنادى بإنشاء "جيش الخلاص" لكنها خفتت بعد حين ، ونحن الآن سائرون الى الاصلاح ، دائمو التفكير فيه ، فليس أنسب من هذا الظرف لاقتباس القدوة والأخذ فى تكوين " جيش الخلاص " .

توفيق دوس